الحدباء واللص

ظهرت رءوس بعض أفراد قطيع الغنم ·· قادمة من الحارة الى « وسعاية » القرية ·· وسرعان ما زحف كل القطيع وانتشرت فى « الوسعاية » ـ وملأت المكان ثغاء ·· والثغاء عند أطفال القرية يعنى جرس الألعاب ·· ما أن يأتى الى أسماعهم حتى يتوقفون عن ألعابهم ·· تتلاقى عيونهم فى نظرات مرحة ـ ثم يتسابقون من كل صوب تسبقهم صيحاتهم الطفولية السعيدة ·· يندسون بين الغنم ·· الذى تشرد أفراده هنا وهناك فى ذعر ·· يحصرونها فى شقاوة ويناطحون كباشها فى تبليل وصخب ··· وكان الأولاد العفاريت يعاكسون الغنم بقصد اللهو ـ ويقصدون أيضا اثارة سعدية الحدباء راعية القطيع ·· ترسل الغنم أصواتها منزعجة ·· عندئذ لا تتقاعس سعدية ·· بل تتدحرج مسرعة رأسها بين كتفيها تدور حول الأفراد الشاردة لتعيدها الى باقى القطيع ـ يقصدها أحد الصغار الأبالسة ·· يجرى منحنيا بين الغنم ·· وما أن يقترب منها حتى يدفعها فتقع على الأرض ··

ولا يضيع الآخرون الفرصة فيهرولون ويلتفون حولها ·· يدورون حلولها ·· بين تصفيقهم وصياحهم ·· تحاول سعدية النفاذ من الدائرة ·· لكنها تصطدم بأجسامهم أو تدفعها أياديهم ·· ولا يكتفى الصبية بهذا ·· بل ينقضون عليها يضربونها بأياديهم ويركلونها بأقدامهم ·· ولا تملك سعدية الا أن تصرخ مستغيثة ·· يسمعها أحد المارة من الفلاحين فيخف لينتشلها من بينهم ·· ثم ينهرهم ·· ويفر الأطفال ضاحكين ·· تنفض سعدية التراب عن ملابسها وشعرها ·· ثم تواصل دحرجتها مع غنمها والدموع تتساقط على خديها المغبرين · وتصحبهم الى مرعى متطرفة فيطعمون ·· وسرعان ما تندمج معهم ناسية اساءة الأطفال ·· وبعد قليل تجلس لترقبهم يضاء وجهها حين تفتر شفتاها عن ابتسامة عذبة ·· فالغنمات يتزايد عددها بمضى الأيام ·· وما تلبث أن تتلاشى ابتسامتها ليحل على ملامحها حزن عميق ·· لعلها تذكرت أمها رحمها الله ·· التى كانت تؤنس وحشيتنا ·· وتحميها من عبث الصغار ·· تتمتم شفتاها بالترحم عليها وتمسح دمعة من على خدها ·· وما أن تتوارى الشمس خلف النخيل فتسوق غنمها الى الترعة فيشربون حتى يرتوون ·· ومع دخول الليل تعود سعدية الى كوخها ·· تدع الغنم يدخلون وتسرع الى الغرفة الوحيدة بالكوخ لتطمئن على والدها القعيد ·· ثم تنبرى فى رعايته ·

لم تكن الحدباء سعيدة ·· فلا يوجد ما يدخل السعادة الى قلبها ·· وأيضا لم تكن بائسة بما تحمله هذه الكلمة من معنى ·· فقط كانت تقضى أوقاتها وأيام عمرها بين تربية غنمها ورعاية والدها مؤنسها الوحيد فى الكوخ والقرية والدنيا بأسرها ··· مطلقا لم تفكر فى شريك غيره ·· بل أنها تؤمن بأن الله خلقها بهذه الهيئة لتتفرغ له ·· ولا تفكر فى سواه ·· واعتادت رغما عنها ألاعيب الصبيان ومضايقاتهم ·· اعتادت أيضا تقزز الكبار

منها وسخطهم عليها .. ولم تستغرب أن تسمع اسمها مقرونا بالحدباء من الغلمان والرجال .. والنساء حين يطلقنه ليخفن به صغارهن .. هكذا خلقها الله .. وهذا قدرها لا مناص .. فقط تسرى عن نفسها وتهدىء بالها بقليل من الدموع .

كان لسعدية رحلة أسبوعية .. فتصحو كل ثلاثاء مع آذان الديكة قبيل الفجر .. فتذهب الى السوق مصطحبة غنيمة من الغنيمات فتبيعها .. وتبتاع من ثمة طلبات والدها واحتياجات البيت .. وكانت تضع ما يتبقى داخل « بوشة » متخفية فى ركن أمين بالكوخ .. لينفعها فى أيام العوز على حد قولها .

غرقت القرية فى ظلمة الليل .. شملها السكون الا من نوبات متقطعة من نباح الكلاب ... على مشارف القرية ظهر شبح لرجل فارع الطول بين أشباح النخيل العملاقة .. وكان ملثم الوجه .. يمشى ببطء بينما يتلفت كثيرا .

كان لا يعكر صفو القرية الا سليم .. فهو لص فاجر رهيب .. يسلب المزارع ويسطو على المنازل .. وكل أيام وقبل الفجر .. يشق الصراخ السكون معلنا عن سرقة من أحد بيوت القرية .. وكل الأهالى يعرفونه حق المعرفة .. لكنهم لا يبلغون عنه خوفا من انتقامه .. فكانوا يكتفون بالدعاء عليه .. تاركين أمرهم لرب لا يغفل ولا ينام .. يسألونه أن يخلصهم من هذا اللص .. وليعوض المنكوب صبرا وخيرا .. وفى مثل هذه الليالى لا ينام الأطفال .. بل يتلاصقون ويتحاورون فى همس والرهبة تملأ قلوبهم .

وقف الشبح خلف شجرة معمرة . مورقة .. والشجرة أمام كوخ سعدية .. أتى الى سمعه وقع أقدام تقترب نحوه ـ حبس أنفاسه .. هدأت نفسه حين رأى كلب سعدية .. دار

الكلب حوله بينما يهز ذيله دليل الفرح ·· يشب عليه مداعبا ·· ربت سليم على رأسه ومسح رقبته ثم أشار له بالابتعاد فرضخ الكلب لأمر سيده !! ·· وما لبث أن توسد رجله وراح في سبات عميق ·

بحذر وخفة صعد اللص فوق الشجرة الكبيرة ·· مشى فوق أقرب غصن للكوخ ·· برشاقة قفز فوق الحائط ·· انبطح على بطنه ·· رفع رأسه ·· جال ببصره من حوله ـ قام منحنى الظهر ·· مشى على يديه ورجليه كالأرنب ·· توقف ·· من وضعه نظر في أرجاء الكوخ ·· رأى السلم الخشبي على الحائط ·· لابد أنه ابتسم من تحت اللثام ·· السلم سيسهل المهمة ·· كأنه في انتظاره ·· لقد نسيته سعدية ·· أو أنها لم تتوقع هذه الزيارة ·

نزل سليم على درجات السلم لا ينتفض ـ ولا يجد الخوف سبيلا الى قلبه ·· فكيف يرهب ضعيفين ·· « مسخوطة » وكسيح ·· أصبح في الفناء ·· فتش في كل أركانه وزواياه ·· لم يعثر على ما يبحث عنه ·· اشتد غيظه ·· وقف برهة يفكر ·· اتجه الى غرفة الكوخ اليتيمة ·· وقف على بابها المغلق ·· دفع الباب برجله ودخل· فوجيء بسعدية تحدجه بنظراتها ·· لابد أنها كانت تنصت الى وقع أقدامه ·· وقفت في مواجهته ·· بلعت لعابها ·· لعب لسانها في فمها ·· **خرجت الكلمات ذليلة متوسلة :**

ـ ماذا تريد يا عماه ؟!!

خلع اللص لثامه ·· فلا فائدة له أمام ابنة أخيه ·· ولا حتى أمام سائر أهل القرية ·· ألقى نظرة على كومة العظام المتهالكة على الأرض ·· وأجابها دون أن يكلف نفسه النظر اليها ·

ـ تعرفين جيدا ما أريد ·· وما سبب هذه الزيارة الليلية ؟

ثم أضاف فى وقاحة :

ـ وهل بالقرية لص غيرى ؟

ـ تعلم أننا ـ أننا فقراء ·· نأكل قوتنا بالكاد ·

ابتسم اللص ابتسامة ماكرة ·· ثم قال من خلالها :

ـ بل تدعين الفقر يا بنة أخى ·

ثم تبدلت سحنته فجأة وقال فى غضب :

ـ أين المال ؟

ـ المال ! ·· اننا لا نعرف عنه الا اسمه ·

ـ أتمكرين على أيتها الحدباء اللئيمة ؟

تنبه سليم الى حركة كومة العظام ·· والأنفاس تتردد منها بطيئة ـ وصوت واهن يخرج منها :

ـ أ أنت يا سليم ؟!

ـ كما ترى يا أخى العزيز ·

ـ ماذا تريد فى هذه الساعة المتأخرة ؟

ضحك اللص ساخرا :

ـ تستطيع أن تسـأل ابنتك ·· فهى تعرف ما أريد حق المعرفة ·

كانت سعدية تعمل فكرها ·· فيما تصنعه أمام هذا الوغد ·· ثم هتفت فى ذكاء :

ـ تعلم يا عمى أننا لا نملك الا الغنم ·· نعطيك غنيمة ··

تقلص وجه اللص غاضبا ·· ثم انطلق يضحك كأنه الشيطان ·· ثم قال فى ثقة شديدة :

ـ مالكم سيكون فى حوزتى ·

جعلت سعدية تتخيل حالهم بعد أن يحتال اللص على مالهم ·· وثمرة كفاحها فاشتد جزعها ·· وكأنما استمدت من الضعف قوة ومن الجزع جرأة فقالت :

ـ اصنع ما بدا لك ·

وكأنما صفعته سعدية على وجهه بتلك العبارة فاستشاط قلبه غيظا ·· فكيف لهذه « المسخوطة » أن تتجرأ على تحديه ·· ولم يلبث أن انقض عليها وأمسكها من تلابيبها وجعل يهزها بعنف بين تهديده ووعيده · ثم قذف بها بعيدا فانكفأت على ظهرها المحدودب فأعادها الى العقود ، ولم يكتف بهذا ، بل قفز بجانبها كالهر وأحاط عنقها بيده ·· ولكنه نظر لأخيه الراقد ·· فغير رأيه وترك سعدية ·· وانقض عليه وأمسك عنقه بكلتا يديه ··

وأخذ يضغط بكل قوته صائحا :

ـ أين « البوشة » تكلم والا أزهقت روحك ·· وروح ابنتك

فزعت سعدية حين رأت هذا المشهد ·· قفزت من فورها ·· جعلت تدفعه بكل قوتها ·· ولكن كيف لها أن تزحزح هذا المارد ·· عبثا ضربته بيديها فكأنما تضرب على صخر ·· التفتت الى والدها هالها احمرار وجهه وبروز عينيه وانتفاخ كل أوردته ·· وما زال اللص يصرخ طالبا « البوشة » ·

لم يستطع القعيد الا أن يجيب اللص بحشرجة وهطرسة غير مفهومة ·· انقضت سعدية على يد اللص تنهشها بأسنانها ·· صرخ بينما سحب يده ·· وجذبها من بين أسنانها ·· جن جنونه حينما رأى الدم يتساقط منها ·· رفع يسراه وصفع وجهها صفعة ترنحت لأثرها وسقطت على الأرض ·· وعيناها تتحركان فى

محجريها يملؤها الغضب والرعب .. بهتت حين سمعت شهقات والدها .. ذعرت حين رأت رأسه يرتمى على كتفه .. كما اشتد فزع سليم حين رأى جريمته والتى لم يأت لاقترافها .. برقت عيناه واتسعت .. وجه نظرة حقد الى سعدية المذهولة ثم الى الجثة المسجاه بجانب قدميه .. بعينى رأسه رأى حبل المشـــنقة يلتف حول عنقه .. يضغط عليه لينزع روحه من جسده ... تحسس رقبته .. الأهالى لا يبلغون عن سرقاته خوفا .. هذه ليست سرقة .. انما جنـاية .. جريمة قتـل سرعان ما تفـوح رائحتها .. أيهرب من الكوخ والقرية ويختفى الى الأبد .. والمال ؟ .. أيدعه لتلك الحدباء اللعينة .. لمعت أوراق النقد فى عينيـه .. انبا زاهيـة براقة .. ليهرب .. لكن بعد أن يستحوذ على المال .. **ما زالت سـعدية فى ذهولها .. نظر اليها .. لف عنقها** بيده :

ـ جـاء دورك أيتها الملعونة .. قتلت أخى .. فما بالك أيتها الحقيرة .

شعرت الحدباء بدنو الموت .. ما أحلى الروح ! .. رفعت يديها مستسلمة ومشيرة الى أحد الأماكن .. حينئذ رفع يده .. تنفست أنفاسا متلاحقة عميقة .. لعلها تسترد روحها .. وكان فكرها مشغولا .. وقالت فى خبث :

ـ سأعطيك كل المال .. وعليك أن تتبعنى .

خرجت الحدباء من الغرفة .. تبعها اللص .. وقفت أمام كوم صغير من التبن .. دست يدهـــا فى أعماقه .. فأخرجت « البوشة » .. محصلة تعبها وكفاح والدها قبل أن يقعده المرض .. اختطفها سليم .. تسربت الفرحة من قلبه الى وجهه .. ابتسم .. حقق أمله الذى كان وليدا .. الذى رعاه حتى نما وترعرع ..

فتح « البوشة » .. اتسعت ابتسامته حين رأى الأوراق المالية .. ارتشف لعابه الذى كاد أن يسيل .. نظر اليها بامتنان لصونها أمانته .. لفت نظره أن وضعت يدها على رأسها تصطنع أن بها دوارا .. طرحت نفسها أرضا .. استغرب سليم .. خدعته التمثيلية التى حبكتها سعدية .. اتسعت دهشته حين رأى احدى الغنيمات تتقدم ناحيتها وتنحنى عليها وتلعق وجهها .. كاد اللص أن يحدث الغنيمة ويشهدها على براءته من موت سعدية ـ دق قلبه حين شعر بدنو الفجر .. هرول ناحية باب الكوخ .. فتحه وخرج .. لم يهتم بغلقه .. ولم يلتفت الى الحدباء التى نطت مسرعة .. دخلت الغرفة .. التقت عصا والدها الغليظة التى كان يهش بها على غنمه .. جذبت سكينا كبيرا من تحت فراشه .. ألقت نظرة وداع على جثة والدها .. أخالت بأنها سمعته يحثها على تنفيذ فعلتها .. مسحت دموعها .. ضغطت أسنانها حتى سمعت صريرها .. هرولت الى الخارج خلف عمها اللص قبل أن يزوغ منها .. أخذت تجرى وتختفى خلف النخيل .. وصدرها ينتفض والتصميم يملؤها .

دنت سعدية من اللص الذى أنصت الى وقع قدميها .. توقف .. التقطت بعض الحصباء .. قذفت باحداهن فى ناحية قريبة منه .. لم ينتبه لها .. رمت بأخرى .. وثالثة .. جعل يتلفت حوله فى رهبة .. خطا ناحية الصوت .. أصبح ظهره مواجها لسعدية .. خطت على أطرافها خلفه .. دنت منه .. تذكرت شهقات والدها الأخيرة .. نظرت الى محصلة الكفاح فى يد اللص .. أخفت السكين فى صدرها .. أمسكت العصا بكلتا يديها .. رفعتها فسمعت دويها وبقوة أوقدها الانتقام .. وأجج نارها فكرة وجودها بعد والدها . هوت بالعصا على رأس اللص .. وانهالت تضرب بعنف وجنون .. لم يدر اللص من أين يأتى اليه الضرب الوحشى .. كأنها شياطين

الأرض اتحدت لتنتقم لضحاياه ·· لم يستطع أن يدافع عن نفسه فهوى الى الأرض بين زعيقه وعوائه ·· لم تتوقف يديـــا حتى سمعت شخيره · الذى انبعث من فمه وأنفه ·· أصابها الاعياء ·· جلست ترقبه بين أنفاسها المتلاحقة وضحكاتها ·· شعرت بالراحة ·· وكأنها غفت لفترة ·· صحت على أصوات أهالى القرية وجلبتهم ·· ومن خلال دموعها رأت الجموع ·· جعلت تتأمل الوجوه ·· لم تستغرب الفرحة التى تعمها ·· ولا نظرات الاعجاب التى يرمقونها بها ·· لكنها اندهشت حين رأت الأطفال يلتفون حوليـــا فى دائرة كعادتهم ·· لكن فى هذه المرة يصفقون لها ·· وينشدون ·· « الثعلب مات مات ·· وفى ديله سبع لفات » ·

انهمرت الدموع من عينى الحـدباء ·· قامت والاعياء باديا على أساريرها ·· انحنت تخلص « البوشة » من يد اللص القتيل ·· شعرت بالسكين التى لم تستخدمها ·· سحبت عصاها وعادت الى كوخها فى هدوء ·

فى عصر هذا اليوم ·· قام أهل القرية جميعا يشيعون جثمان عم أمين والد سعدية الشهيد ·· وكانت من بينهم تتدحرج الحدباء تتخيل مستقبلها المظلم دون والدها ·· ولم تعش الا عدة أيام ·· فقد مرضت كمدا على والدها ·· ولحقت به ·

فى هذه المناسبة من كلّ عام · كانت القرية تقيم احتفـالا لاحياء ذكرى سعدية الحدباء ·· يتغنون بقصة بطولتها · وفى الصباح يهرع الجميع الى المقابر لزيارة قبرها ·· وفى مقدمتهم الأطفال الذين يضعون حوله العيدان الخضراء . وهكذا عاشت الحدباء ذكرى لن يمحوها تراكم السنين ·

اذا صادفك ما يثير السخرية فلا تسخر ·· فلربما كنت أمام بطلا ضيعته الأيام ··وطمس بريقه الحرمان وكان البريق ممكن أن يضىء طريقا فى الظلام ·